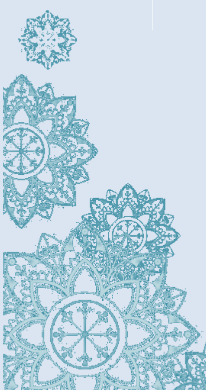
الابتلاء
بَوَّابَة الاصْطِفَاء

إعداد
سَامي بنُ محمد العُمَر

١٤٤١هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

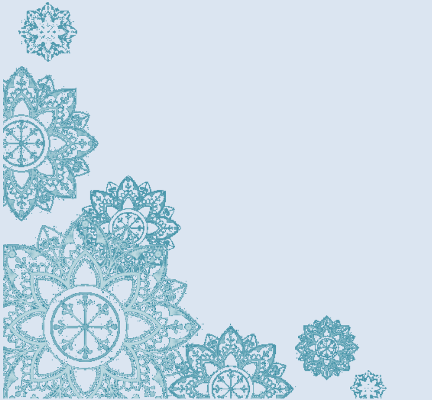


المحتويـــات



مَعَ الابتِلاءِ ...

- ولله المثلُ الأعلى
- هل يَسلمُ مِنه أحدٌ؟
- للمُؤمنينَ نعمةٌ
- ما أهونَ الخلقَ على الله!
- حِكمٌ عظيمةٌ



ولله المثلُ الأعلى

أبٌ يُنعم على أولاده بما أعطاه اللهُ من خيرٍ ومال، ويضعُ بأيديهم كلَّ يوم ما يكفي حاجاتِهم ويزيدُ، وهم بذلكَ مسرورونَ، وفي الخير يتقلبونَ ويسرحونَ ويمرحونَ.

لكنّ الأبَ يُحِس منهم بجفوةٍ عن الطاعة، وبُعدٍ عن البِر، واقترافٍ لشيء من العُقوق!

فيُوجِّه لهم من المواعظِ ما يتمنى أن يكونَ فيها رجوعُهم وإنابتُهم، وربما هدّدَ وتوعدَ، وحذّرَ وأنذرَ.

وعندما لا يُفيق الأولادُ مما هم فيه، يلجأُ لقطعِ مادةِ تَرفِهم ولهوِهم، ويُقتِّر عليهم لا كُرهًا منه لشخصِهم، ولا انتقامًا منه لأفعالِهم..

ولكنّها المحبةُ... التي تقودُ الطبيبَ لقطعِ العضوِ الفاسدِ من الجسمِ حتى لا يسرِي الداءُ لبقيةِ الأعضاءِ.

المحبةُ... التي تقودُ الوالدَ لشيءٍ من القسوةِ والحزمِ ليتحققَ للولدِ

بعدها صلاحٌ بعد ضلالٍ، وهدايةٌ بعد غوايةٍ.

قَسا ليزدجِروا ومن يكُ حازِمًا فليَقسُ أحيانًا على من يرحَمُ

وهاهم عبادُ الله في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها...

منهم أممٌ لاهيةٌ لاعبةٌ مترفةٌ من خيراتِ الله، ابتعدت عنه كثيرًا وأظهرت صنوفًا من البَطرِ والنكران؛ فكان لابد من الابتلاءِ، وشيءٍ من الخوفِ والجوعِ ونقص من الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ.

وكلُّ ذلك ... لحكمةٍ عظيمةٍ...

أن يَنتبِهوا من غَفلتِهم، ويُفيقُوا من سُباتِهم، ويَعودوا لربِهم، ويجدِّدوا إيمانَهم...

وهلِ الخيرُ كلُّ الخيرِ إلا في هذا؟

هل يَسلمُ مِنه أحدٌ؟

أمّا بعدَ قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ

﴿الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥]؛ فلا أحدَ خارجَ دائرةِ الابتلاءِ.

ولِئِن كانَ هناك أحدٌ من الممكنِ أن يَستَثْنِيَه الله من الابتلاءِ؛ فلا أكرمَ عنده من محمدٍ ﷺ، ولكن:

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاء؟ قال: ((الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))(١).

وعن عبدِ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ وهو يُوعكُ، فقلت: يا رسولَ الله، إنك لتُوعكُ وعكًا شديدًا؟ قال: ((أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ)) قلت: ذلك أنّ لك

---

(١) أخرجه **الترمذي** (٢٣٩٨) كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

أجرينِ؟ قال: ((أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا))[1].

للمُؤمنينَ نعمةٌ

للبلاءِ مع المؤمنِ وجهٌ آخرُ جميلٌ، متى ما تحققَ منه الصبرُ وطلبُ الأجرِ، فعن صُهَيبٍ رضي الله عنه قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ: ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))[2].

ولنتأمل ذلك مع شيخِ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذْ يقول:

---

(١) أخرجه **البخاري** (٥٦٤٨) كتاب: المرضى، باب: أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، **ومسلم** (٢٥٧١) كتاب: البر والصلة، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها.

(٢) أخرجه **مسلم** (٢٩٩٩) كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير.

"والله يُنزل بعبده المؤمن من الشدة والضُّر ما يُلجئه إلى توحيده؛ فيدعوه مخلصًا له الدين، ولا يرجو أحدًا سواه، ويتعلق قلبه به وحده؛ فيحصلُ له من التوكلِ والإنابةِ، وحلاوةِ الإيمان وذوقِ طعمه، والبراءةِ من الشرك ما هو أعظم نعمةً من زوال ضُرِّه، فإن ما يحصلُ لأهل التوحيد لا يمكنُ وصفه من ذلك.

فإن الضُّر في الدنيا من المرضِ والعُسرِ والألمِ وغيره؛ يشتركُ في زواله وذوقِ لذة حلاوتِه المؤمنُ والكافرُ؛ لأنه من أمورِ الدنيا.

بخلافِ حلاوة الإيمان؛ فلا يمكنُ أن يُعبَّر عنها بمقال، ولكل امرئٍ من المؤمنين نصيبٌ بقدر إيمانه"(١).

ما أهون الخلق على الله

عن جُبير بن نُفير قال: لما فُتِحت قبرص فُرِّق بين أهلِها، فَبَكى

(١) مختصر الفتاوى المصرية (ص١٣٩).

بعضُهم إلى بعضٍ، فرأيتُ أبا الدَّرداءِ جالسًا وحدَه يَبكِي، فقلت: يا أبا الدَّرداء ما يُبكيكَ في يومٍ أعزَّ اللهُ فيه الإسلامَ وأهلَه؟ فقال: "ويحكَ يا جُبير، ما أهونَ الخلقَ على الله عز وجل إذا أضَاعُوا أمرَهُ، بينما هي أمةٌ قاهرةٌ ظاهرةٌ لهم الملكُ، تركوا أمرَ الله فصارُوا إلى ما تَرى"(١).

(ما أهونَ الخلقَ على اللهِ إذا أضَاعُوا أمرَهُ) ...

هذا مربِطُ الفرس، وسرُّ المسألة، وهذا محلُّ النظرِ والتفكرِ والاعتبارِ والاتعاظِ.

إنَّ تبدلَ الأحوال من الله نتيجةُ تغيير العبادِ لها في أنفُسهِم، وهو القائل سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

وإنَّ تسلُّطَ جندِ الله على الناس نتيجةُ تجبرهم.

وإنَّ جريانَ العقوباتِ فيهم حصيلةُ تضييعهم وتخبُّطهم ﴿ظَهَرَ

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢١٧/١).

الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

لقد أضاعوا أمرَ الإلهِ القادرِ؛ وقد حذَّرهم من قُدرتهِ التي لا يقفُ أمامَها أيُّ شيءٍ؛ فهل هُم مُنتهون؟

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٥].

حكمٌ عظيمةٌ

الابتلاء سنةٌ إلهيةٌ، قدَّرها الله لحكمٍ عُظمى، وفوائدَ كُبرى.

ومن أبرزها في حقِّ المؤمنين:

- **اختبار الصدقِ في ادِّعاءِ الإيمان:**

قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ

ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

"يُخبر تعالى عن تمامِ حكمتِهِ؛ وأن حكمتَه لا تقتضي أن كلَّ مَن قال: إِنَّه مؤمنٌ، وادَّعى لنفسِه الإيمانَ؛ أن يَبقوا في حالةٍ يَسلمُون فيها مِن الفتنِ والمحنِ، ولا يَعرِضُ لهم ما يُشوِّش عليهم إيمانَهم وفروعَه؛ فإنهم لو كانَ الأمرُ كذلك؛ لم يَتميَّزِ الصادقُ من الكاذبِ، والمُحِقُّ من المُبطِل.

ولكنَّ سُنته وعَادتَه في الأوَّلينَ وفي هذهِ الأمةِ، أن يبتليَهم بالسراءِ والضراءِ، والعسرِ واليسرِ، والمنشطِ والمكرهِ، والغنى والفقرِ، وإِدالةِ الأعداءِ عليهم في بعضِ الأحيانِ، ومجاهدةِ الأعداءِ بالقولِ والعملِ ونحوِ ذلك من الفتنِ، التي ترجِعُ كلُّها إلى: فتنةِ الشُّبهاتِ المعارِضةِ للعقيدةِ، والشهواتِ المعارِضةِ للإرادةِ.

فمَن كان عندَ ورودِ الشبهاتِ يثبتُ إيمانُه ولا يتزلزلُ، ويدفعُها بما معه من الحقِ، وعند ورودِ الشهواتِ الموجبةِ والداعيةِ إلى المعاصي والذنوبِ، أوِ الصارفةِ عما أمرَ اللهُ به ورسولُه؛ يعملُ بمقتضى الإيمانِ،

ويجاهدُ شهوتَه، دلَّ ذلك على صدقِ إيمانِه وصحتِه.

ومَن كانَ عند ورود الشبهاتِ تُؤثّرُ في قلبِه شكًا وريبًا، وعند اعتراضِ الشهواتِ تَصرفُه إلى المعاصي أو تصدِفُه عن الواجباتِ، دلَّ ذلك على عدمِ صحةِ إيمانِه وصدقِه"[١].

- **اختبار تحقُقِ العبوديةِ والثبات:**

وحولَ ذلك يُعلق ابنُ القيِّم رحمه الله على ابتلاءِ الله للمؤمنينَ في غزوةِ أُحدٍ وما في ذلكَ من الحكمِ والفوائدِ فيقول:

"ومنها: استخراجُ عبوديةِ أوليائِه وحزبِه في السراءِ والضراءِ، وفيما يحبونَ وما يكرهونَ، وفي حالِ ظَفرِهم وظَفرِ أعدائِهم بهم، فإذا ثَبتوا على الطاعةِ والعبوديةِ فيما يحبونَ وما يكرهونَ فهم عَبيدُه حقًّا، وليسُوا كمَن يعبدُ اللهُ على حرفٍ واحدٍ من السراءِ والنعمةِ والعافيةِ"[٢].

---

(١) تفسير السعدي (ص٦٢٦).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/١٩٨).

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴿١١﴾﴾ [الحج:١١].

• تعلُّقُ القلبِ بالله توكلاً والتجاءً:

الابتلاء يزيلُ قسوةَ القلوبِ ليعودَ لها لينُها ورقتُها، ويكسِرُ النفوسَ بين يدي خالقِها وبارئِها، ويديمُ استكانتَها لربها وتضرعَها؛ لأنه العاصمُ من كلِّ مكروهٍ، والمنجي من كلِّ محذورٍ؛ واحدٌ لا شريكَ له، عليه توكلنَا وإليه أنبنَا؛ ولن يُصيبنا إلا ما كتبَ اللهُ لنا.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام:٦٣-٦٥]

ونَبرأُ من فعلِ الجاهلينَ المجرمينَ ممن قالَ الله عنهم ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون:٧٦].

- **كفارةُ الذنوب، ومحوُ الخطايَا:**

في ذاتِ الابتلاءِ نعمةٌ ورحمةٌ للمؤمنين، حينَ يعيشُ المرء لحظاتِ الألمِ بعينِ الرضا والسرورِ، والتطلعِ إلى هذه الجائزةِ الثمينةِ، وهذا الوعدِ الصادقِ.

عن أبي هُريرةَ ﵁ قال: قال النَّبي ﷺ: ((مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))[(١)].

- **حصولُ الأجرِ ورِفعةُ الدَّرجاتِ:**

لا تقفُ جائزةُ الله لعبادِه المؤمنين حالَ الابتلاءِ على تكفيرِ ما اقْترفُوه منَ الخطايَا؛ بلْ هُم مَوعودونَ أيضًا بجوائزَ أخرى، تُهوِّنُ عليهم الآلامَ، وتَفسحُ لهم في الآمالِ.

عن عائشةَ ﵂ قالت: قال رسولُ الله ﷺ: ((مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا

---

(١) أخرجه **الترمذي** (٢٣٩٩) كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٨٠).

خَطِيئَةً))[١].

- **التذكرةُ بخطرِ الذنوبِ:**

فمِنَ المتفقِ عليه عند أهلِ الإيمانِ؛ أنَّ الذنوبَ أهمُّ أسبابِ الابتلاءِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ولذَا كانَ الابتلاءُ فرصةً للعبدِ أن يتذكرَ سببَ بلائِه فيتخلصَ منه، وأساسَ نجاتِه فيتعلقَ به؛ وما رُفع بلاءٌ إلا بتوبةٍ وإنابةٍ وتضرعٍ.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

---

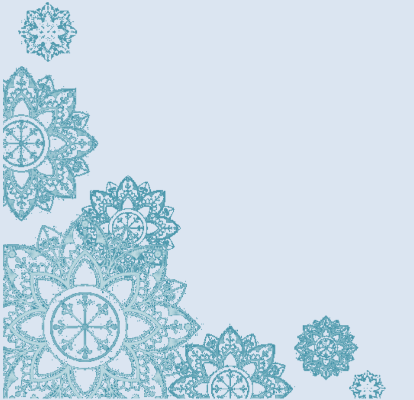
(١) أخرجه **مسلم** (٢٥٧٢) كتاب: البر والصلة، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها.





أَمَامَ البَوَّابَةِ...

- المفتاحُ الأكبر
- مشاهدُ من عَظمةِ الله
- أثرُ العَظَمةِ على القَلب
- مُضغةُ لحمٍ
- إنَّه لم يَمُت
- وحتَّى يرِقَّ القَلب
- اليقينُ بالله



إنما يستفيدُ المؤمنُ من الابتلاءِ إذا استشعرَ فيه عظمةَ الله تعالى؛ فلانَتْ له قسوةُ قلبهِ المُبتلى، واستعدَّ لملئِهِ بجُرعات اليَقينِ.

المِفتاحُ الأكبرُ

عن عَديّ بن حَاتم ﷺ قال:

لما بَلغني خروجُ رسولِ الله ﷺ كرِهتُ خروجَه كراهةً شديدةً، فخرجتُ حتى وقعتُ ناحيةَ الرومِ، حتى قدمتُ على قيصرَ، فكرِهتُ مكاني ذلك أشدَّ من كراهيتي لخروجِه.

فقلتُ: واللهِ لو أتيتُ هذا الرجلَ، فإن كانَ كاذبًا لم يضرَّني، وإن كانَ صادقًا علمتُه، فقدمتُ بغيرِ أمانٍ ولا كتابٍ، فأتيتُه وهو جالسٌ في المسجدِ فلمَّا رآنيَ الناسُ قالوا: عديُّ بن حاتم!، عديُّ بن حاتم!، فدخلتُ على رسولِ الله ﷺ فبَينمَا أنا عنده، إذ أتاهُ رجلٌ فشكا إليه الفاقةَ، ثم أتاهُ آخرُ فشكا إليه قطعَ السبيلِ.

ثمَّ أخذَ رسولُ الله ﷺ بيدي فقامَ – وقد كانَ قالَ قبلَ ذلكَ:

((إِنِّي لأَرجُو أَن يَجعَلَ اللهُ يَدَهُ فِي يَدِي)) – فلقيتْهُ امرأةٌ وصبيٌ معهَا، فقالا: إنَّ لنا إليكَ حاجةً، فقامَ معهُمَا حتى قضى حاجتهُمَا، ثمَّ أخذَ بِيدِي حتى أَتَى بي دارَهُ؛ فألْقت له الوليدةُ وسادةً فجلسَ عليهَا، وجلستُ بينَ يديهِ، فحمدَ اللهَ وأَثنَى عليه، ثمَّ قال:

((ما يُفرُّكَ[1] أَن تَقولَ لا إِلهَ إِلا اللهُ؟ فَهَل تعلَمُ مِن إِلهٍ سِوَى اللهِ؟))، قلت: لا، ثم تكلَّم ساعةً، ثم قال: ((إِنَّما تَفِر أَن تَقولَ اللهُ أَكبرُ؟ فَهَل تعلَمُ أَنَّ شيئًا أَكبرُ مِن اللهِ؟)) قلت: لا، قال: ((فَإِنَّ اليَهُودَ مَغضُوبٌ عَليهِم، وَإِنَّ النَّصَارَى ضُلالٌ، يَا عَدِيُّ بنَ حَاتِمٍ، أَسلِمْ تَسْلَم – ثلاثًا –)).

فقلت: إِنِّي من أهلِ دينٍ، قال: ((أَنَا أَعلَمُ بِدينِكَ مِنكَ))، فقلت: أنتَ أعلمُ بديني مِني؟ قال: ((نَعَم؛ أَلَستَ رَكُوسِيًّا؟[2]))، قلت: بلى، قال: ((أَلَستَ تَرأَسُ قَومَكَ؟))، قلت: بلى، قال:

---

(١) أي: ما يحملك على الفرار؟

(٢) الركوسية: ديانة مأخوذة من دين النصارى والصابئة.

((أَلَستَ تَأخُذُ مِربَاعَ قَومِكِ؟[١]))، قلت: بلى، قال: ((فَإِنَّ هَذَا لا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ)).

قال: فلمَّا قال رسولُ الله ﷺ ذلك تواضعتْ مني نفسِي.

فقال: ((أَمَا إِنِّي أَعلَمُ مَا الذِي يَمنَعُكَ مِن الإِسلامِ، تَقُولُ: إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ، وَمَن لا قُوَّةَ لَه، وَقَد رَمَتهُم العَرَب!! فَوَالذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمرَ، أَتعرِفُ الحِيرَةَ؟[٢])) قلت: لم أرهَا، وقد سمعتُ بها.

قال: ((فَإِن طَالَت بِكَ حَياةٌ لَتَرينَّ الظَّعِينَةَ تَرتَحِلُ مِن الحِيرةِ[٣]، حَتَّى تَطَوفَ بِالكَعبةِ، لا تَخَافُ أَحدًا إِلا اللهَ))، فقلتُ فيما بيني وبينَ نفسِي: فأينَ لصوصُ طيءٍ الذين سَعَّروا البلاد؟[٤].

(١) أي: ربع الغنيمة، كان رئيس القوم يأخذه لنفسه في الجاهلية.

(٢) الحيرة: مدينة تبعد ثلاثة أميال عن الكوفة، ويقال هي النجف.

(٣) أي: المرأة في الهودج.

(٤) أي: ملؤا الأرض شرًا وفسادًا.

قال: ((وَلئِن طَالَت بِكَ حَياةٌ لَتُفتَحَنَّ كُنوزُ كِسرَى)) فقلت: كِسرى بن هُرمز؟

قال: ((نَعم، كِسرَى بن هُرمُز، وَلئِن طَالت بِكَ حياةٌ لَترَينَّ الرجُلَ يَخرجُ مِلءَ كَفِّهِ مِن ذَهبٍ أَو فِضَّةٍ يَطُوفُ بِصَدقَتِهِ، فَلا يَجِدُ مَن يَقبَلُهَا مِنهُ)).

فقلتُ: إني جئتُ مُسلِمًا، قال: فرأيتُ وجهَهُ تبسَّطَ فرحًا، ثم أمرَ بي فأُنزلتُ عند رجلٍ من الأنصارِ، فجعلتُ آتيه طرفي النهارِ.

قال عَديٌّ: فهذِهِ الظَّعينةُ تخرجُ من الحِيرةِ فتطُوفُ بالبيتِ في غيرِ جِوارٍ، ولقد كنتُ فيمن فَتحَ كنوزَ كِسرى بن هُرمز، والذي نفسِي بيدِه لتكونَنَّ الثالثةُ، لأنَّ رسولَ الله ﷺ قد قَالها[1].

هل شدَّ انتباهَك شيءٌ في هذا الحوارِ؟

أهو تواضُعه ﷺ، أم حسن حِواره، أم علمُه بأديانِ أهلِ الأرض،

---

(١) أخرجه **أحمد** (١٨٢٦٠) مطولاً، وبعضه في **البخاري** (١٤١٣ وَ ٣٥٩٥).

أم وعدُ الله له بنصرةِ هذا الدين، أم دلائلُ نبوته التي تحققت، أمْ وَأمْ وَأمْ؟

لقد استوقَفَنِي قوله ﷺ: ((فَهَل تَعلَمُ أَنَّ شيئًا أَكبرُ مِن اللهِ؟)).

نعم... إنه تعظيمُ الله تعالى في القلوبِ.

ذاك مفتاحُ بابِ الخشيةِ والخوفِ والمراقبةِ.

ذاك مفتاحُ بابِ التوبةِ والإقبالِ والإنابةِ.

ذاك مفتاحُ بابِ الهدايةِ والتوفيقِ والصلاحِ.

مشاهدُ من عَظَمةِ الله

الله العظيم.. وهل أحدٌ أعظمُ من الله؟

الله الكبير.. وهل أحدٌ أكبرُ من الله؟

"يُدبِّر أمرَ الممالكِ، ويأمرُ وينهَى، ويخلقُ ويرزقُ، ويميتُ ويحِيي، ويعزُ ويذلُّ، ويقلبُ الليلَ والنهارَ، ويداولُ الأيامَ بينَ الناسِ، ويقلِّبُ

الدُّولَ فيَذهبُ بدولةٍ ويأتي بأُخرى.

وأَمرُه وسلطانُهُ نافذٌ في السماواتِ وأقطارِها، وفي الأرضِ وما عليهَا وما تحتهَا، وفي البحارِ والجوِّ، قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلمًا وأحصى كلَّ شيءٍ عددًا.

وَسِعَ سمعُه الأصوات فلا تختلفُ عليه، ولا تشتبهُ عليه، بل يَسمعُ ضَجيجَها باختلافِ لُغاتِها على تفُنُّنِ حاجاتِها، فلا يُشغلِه سمعٌ عن سمعٍ، ولا تُغلطُه كثرةُ المسائلِ، ولا يَتبرَّمُ بإلحاحِ المُلحين ذَوي الحاجاتِ.

وأحاطَ بصرُه بجميعِ المرئياتِ فيَرى دبيبَ النَّملةِ السوداءِ على الصخرةِ الصَّمَّاءِ في الليلةِ الظَّلماءِ، فالغيبُ عندَه شهادةٌ والسِّرُ عندهُ علانيةٌ ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩].

يغفرُ ذنبًا، ويفرجُ همًا، ويكشفُ كربًا، ويجبرُ كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويهدي ضالاً، ويرشدُ حيرانًا، ويغيثُ لهفانًا، ويشبعُ جائعًا، ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا، ويعافي مبتلى، ويقبلُ تائبًا، ويجزي محسنًا،

وينصرُ مظلومًا، ويقصمُ جبارًا، ويسترُ عورةً، ويؤمِّنُ روعةً، ويرفعُ أقوامًا، ويضعُ آخرين.

لو أنَّ أهلَ سماواتِه وأهلَ أرضِه، وأوَّل خلقه وآخرَهم، وإنسَهم وجنَّهم؛ كانوا على أتقى قلبِ رجل منهم، ما زاد ذلك في ملكِهِ شيئًا.

ولو أنَّ أوَّل خلقِه وأخرَهم، وإنسَهم وجنَّهم؛ كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ منهم ما نقصَ ذلك من مُلكِه شيئًا.

ولو أنَّ أهل سماواتِه وأهل أرضِه، وأوَّل خلقِه وأخرَهم، وإنسَهم وجنَّهم، وحيَّهم وميتَهم، ورطبَهم ويابسَهم، قاموا على صعيدٍ واحدٍ فسَألوهُ فأعطى كلاً منهم ما سَألهُ، ما نقصَ ذلك مما عندَهُ مثقالُ ذرةٍ.

هو الأوَّلُ الذي ليس قبله شيءٌ، والآخِرُ الذي ليس بعدَه شيءٌ، وهو أحقُّ مَن ذُكِر، وأحقُّ مَن عُبِد، وأولى مَن شُكِر، وأرأفُ مَن ملك، وأجودُ مَن سُئِل.

هو الملكُ الذي لا شريكَ له، والفردُ فلا نِدَّ له، والصمدُ فلا ولدَ له، والعليُّ فلا شبيهَ له، كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَه، وكل شيءٍ زائلٌ إلا ملكُه.

لن يُطاعَ إلا بإذنِه، ولن يُعصى إلا بعلمِه، يطاعُ فيَشكرُ، ويُعصى فيغفرُ.

كلُّ نقمةٍ منه عدلٌ، وكلُّ نعمةٍ منه فضلٌ.

أقربُ شهيدٍ، وأدنى حفيظٍ، أخذَ بالنَّواصِي، وسجَّلَ الآثارَ، وكتبَ الآجالَ، فالقلوبُ له مُفضِيةٌ، والسِّرُّ عنده علانيةٌ.

عطاؤُهُ كلامٌ وعذابُهُ كلامٌ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢]".

أثرُ العظمةِ على القلبَ

إنَّ القلبَ الممتلئَ بتعظيم الله ليُورث صاحبَه رضىً وصبرًا، ويدعوه إلى العملِ الصالحِ طاعةً وشكرًا، ويجنِّبُه محارمَ الله خوفًا وفرَقًا.

والمعظِّم لربِهِ؛ لديه من الثقةِ بالله، ما يجعلُهُ هادِئَ البالِ، ساكنَ النفسِ، مُستشعِرًا معيَّةَ الله سبحانه له، بالحفظِ والنصرِ والتأييدِ.

أمَا والله لو عَلِم العبادُ ما لله من العظمةِ ما عَصوه، ولو عَلِم المُحبونَ ما له من الجمالِ والكمالِ ما أحبُّوا غيرَهُ، ولو عَرفَ الفقراءُ غِنى الربِ ما رَجوا سواه، فسُبحانه وتعالى هو سُلوانُ الطائعينَ، وملاذُ الهاربينَ، وملجأُ الخائفينَ.

اللهم املأَ قلوبنَا إعظامًا وإجلالاً لك، واجعلنَا من الراغبينَ الراهبينَ الخاشعينَ.

مُضغَةُ لحمٍ

تمرضُ فلا يُهتم بها...

تزيغُ فلا يُلتفت لها...

تقسو وتتحجرُ فلا يُتألم لأجلها...

يصيبُها الارتيابُ والرانُ، وربما الختمُ والطبعُ، وهي في أكِنَّتِها

وتغليفَها وغمْرتِها؛ تبحثُ عن الإخباتِ والاطمئنانِ والربطِ والتثبيتِ.

طالما قَسونا عليها حتى قَستْ.

وطالما لهونَا عنها حتى لهتْ.

وطالما أسرفنا عليها بالأدواءِ حتى مرِضتْ.

وطالما مَنعْنا عنها الدواءَ حتى رَانتْ وماتتْ.

مُضغة لحمٍ... تُنادي بلسانِ الحال: أينَ الدواء؟ أين ما يُزيل الدَّاء؟ أين طوْق النَّجاة؟ وأين طُرُقُ السَّلامة؟

تتطلعُ إلى موردِ التَّطهيرِ، وبلسمِ النَّقاءِ.

تتطلعُ لدمعِ العينِ يُطفئ لهيبَ النارِ، ويبرِّد حرارةِ الحُمَّى.

ولكن... ما السبيلُ لذلك؟ والعينُ من البكاءِ قَحِطةٌ؛ وأرضُها من الماءِ مُجدبةٌ؟؟

قال ابنُ القيم رحمه الله:

"ومتى أقحَطتِ العينُ من البكاءِ من خشيةِ الله تعالى؛ فاعْلم أن

قَحطَها من قسوةِ القلبِ، وأبعدُ القلوبِ مِن الله القلبُ القاسِي"(١).

إنَّه لم يَمُت

نعم، إنَّه لم يمت بعدُ، ولكنَّه مريضٌ، يتألمُ ويُعاني.

قلبٌ فيه بصيصٌ من نورِ الإيمان، لكنَّ عليه ظلمةَ الشهواتِ، وعواصفَ الأهويةِ، فللشيطانِ فيه إقبالٌ وإدبارٌ، ومجالاتٌ ومطامعُ، والحربُ فيه دُولٌ وسِجالٌ.

وحتى لا يكون قلبًا لاهيًا كما وصفَ الله ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ۝١ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:١-٢].

ولا قلبًا غافلاً كما قال الله ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا۝٢٨﴾ [الكهف:٢٨].

ولا قلبًا أعمى كما بيَّن الله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ

---

(١) بدائع الفوائد (٣/٢٢٤).

يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٦].

فإنَّه يحتاجُ إلى سُرعةِ إنعاشٍ، ومُبادرةِ علاجٍ: بالتوبةِ إلى الله، وصِدق اليقينِ بخبرِهِ وخبرِ رسوله ﷺ، حتى يعودَ سليمًا معافى.

وإلا... فإنه الخِزيُ العظيمُ ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٧-٨٩].

وحتى يرق القلب

لا بدَّ من زيادةِ العلمِ بالله، ودوامِ قراءة كتابِه وتدبُّرِ معانيه، ولزومِ ذكرِ الله حتى تجودَ العينُ بدمعِها خشيةً له وإجلالاً لعظمتِه، والندمِ على التفريطِ في جنبِ الله، وتذكرِ الموتِ والحسابِ، والجنةِ والنارِ، وسماعِ المواعظِ المؤثرةِ، والأحاديثِ المرققةِ للقلوبِ، واجتنابِ أهلِ اللعبِ والباطلِ، وأربابِ الملهياتِ والمضحكاتِ.

"وإنَّ في القلبِ قسوةً لا يُذيبُها إلا ذكرُ اللهِ تعالى، فينبغي للعبدِ أن يُداويَ قسوةَ قلبِه بذكرِ الله تعالى.

وذَكرَ حمادُ بن زيدٍ، عن المُعلى بن زيادٍ، أن رجلاً قال للحسنِ: يا أبا سعيدٍ؛ أشكُو إليك قسوةَ قلبي، قال: أذِبهُ بالذِّكرِ.

وهذا لأنَّ القلبَ كلما اشتدَّت به الغفلةُ اشتدَّت به القسوةُ؛ فإذا ذكرَ الله تعالى ذابتْ تلك القسوةُ كما يذوبُ الرصاصُ في النارِ، فما أُذيبتْ قسوةُ القلوبِ بمثل ذكرِ الله عز وجل"[١].

ولا تضــحكْ مــع الســفهاءِ يومــًا ... فإنــك ســوفِ تبكــي إن ضــحِكتا
ومــن لــك بالســرورِ وأنــتَ رهــنٌ؟ ... ومــا تــدري أتُفــدى؟ أم غُللتــا ؟!
ولــو بكــتِ الــدِّمَا عينــاكَ خوفًــا! ... لذنبِــك لم أقــلْ لــك قــد أَمِنْتــا!
ومــن لــك بالأمــانِ وأنــتَ عبــدٌ؟ ... أُمِــرت فمــا ائتمــرتَ ولا أطعتَــا!

(١) الوابل الصيب (ص٩٩).

اليَقينُ باللهِ

إنَّ الذي يُحيل الجبانَ بطلاً، واليأسَ أملاً، والطفلَ رجلاً، ويُقرب بعد العسرِ يسرًا، وبعد الشدةِ فرجًا؛ إنما هو اليقينُ بالله والإيمانُ به وحسنُ الظنِ والرجاءِ في لطفِه ورحمتِه.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا۝﴾ [الطلاق:٣].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال:

كنتُ خلفَ رسولِ الله ﷺ يومًا، فقال لي: ((يَا غُلامُ إِنِّي أُعلِّمكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَل اللَّه، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، واعلَمْ: أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجتَمعتْ عَلَى أَنْ ينْفعُوكَ بِشيْءٍ، لَمْ يَنْفعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَد كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوك بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بَشَيْءٍ قَدْ

كَتَبَهُ اللَّه عليْكَ، رُفِعَتِ الأقْلامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ))[١].

مــن يتــق الله يُحمــد في عواقبِــه ... ويكفِهِ شرَّ من عزُّوا ومن هَانُوا

مــن اســتجارَ بغــيرِ الله في فَــزعٍ ... فــإنَّ ناصــرَهُ عَجــزٌ وخِــذلانُ

فــالزمْ يــديكَ بحبــلِ الله مُعتصِــمًا ... فإنَّــه الــركنُ إن خانتــكَ أركــانُ

روى التَّنوخيُّ في "الفرج بعد الشدة":

عن عُبيد الله بن سليمانَ الوزيرِ قال: قال لي أبي: كنتُ يومًا في حبسِ محمدِ بن عبد الملك الزيَّات، في خلافةِ الواثق، آيسُ ما كنتُ من الفرج، وأشدُّ محنةً وغمًّا، حتى وردتْ عليَّ رقعةُ أخي الحسنِ بن وهبٍ، وفيها شعرٌ له:

محَــنٌ أبا أيــوب أنــت محِلُّهــا ... فــإذا جزعــتَ مــن الكــروبِ فمَــنْ لهــا؟

إنَّ الــذي عقــدَ الــذي انعقــدتْ بــه ... عُقــدُ المكــارهِ فيــكَ يُحســنُ حلَّهَــا

فاصــبرْ فــإنَّ اللهَ يُعقــبُ فرجــةً ... ولعلَّهــا أن تَنجلــي ولعلَّهَــا

---

(١) أخرجه **الترمذي** (٤/٦٦٧)(٢٥١٦) أبواب: صفة القيامة، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

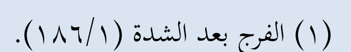
وعسى تكونُ قريبةً مِن حيثُ ... ترجو، وتَمحو عن جَديدكَ ذُلَّها

قال: فتفاءلتُ بذلك، وقويتْ نفسي، فكتبتُ إليه:

صبَّرتني ووعظتني وأنا لَهَا ... وستنجلي بلْ لا أقولُ لعلَّهَا

ويحلُّها مَن كانَ صاحبُ عقدِها ... ثقةً بهِ إذْ كان يملِكُ حلَّهَا

قال: فلم أُصَلِّ العتمةَ ذلك اليومِ، حتى أُطلقتُ، فصليتُها في دارِي، ولم يمضِ يومي ذاك حتى فرَّجَ الله عنِّي، وأطلقتُ من حبسِي[1].

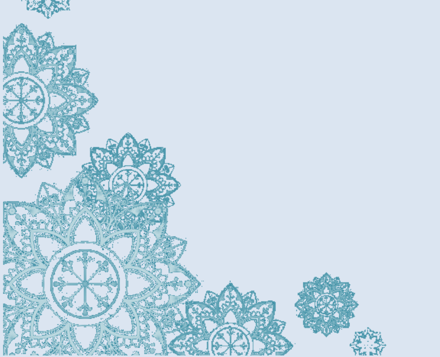


(١) الفرج بعد الشدة (١/١٨٦).



ذَرَائِعُ الاصْطِفَاء...

- **التَّوبةُ والصَّبرُ**
  - ✓ إنَّه يُناديِنا
  - ✓ إنَّ ربنا لغفورٌ شكورٌ
  - ✓ لا قنوطَ
  - ✓ لا يأسَ
- **التِّلاوةُ والدعاءُ**
  - ✓ القرآنُ نورٌ وشفاءٌ
  - ✓ القرآنُ وحيٌ ثقيلٌ
  - ✓ هَل وَجدتهُ؟
- **الصلاةُ والاقتداءُ**
  - ✓ عَلتْ هِممُهُم
  - ✓ سِرُّ هذا السَّبق
  - ✓ في الامتثالِ نجاةٌ



للاصطِفاء ذرائعُ تقودُ إليه، ووسائلُ تدلُّ عليه، "والمصالحُ والخيرات واللذاتُ والكمالات كلُّها لا تُنال إلا بحظٍ من المشقة، ولا يُعبر إليها إلا على جسرٍ من التعبِ.

وقد أجمع عقلاء كلِّ أمةٍ على أن النعيمَ لا يدرك بالنعيمِ، وأنَّ من آثر الراحةَ فاتته الراحةُ، وأن بحسبِ رُكوب الأهوالِ واحتمالِ المشاقِ تكون الفرحةُ واللذةُ؛ فلا فرحةَ لمن لا همَّ له، ولا لذةَ لمن لا صبرَ له، ولا نعيمَ لمن لا شقاءَ له، ولا راحةَ لمن لا تعبَ له، بل إذا تعبَ العبد قليلاً استراحَ طويلاً، وإذا تحملَ مشقةَ الصبر ساعةً قادهُ لحياةِ الأبد، وكلُّ ما فيه أهلُ النعيمِ المقيمِ فهو صبرُ ساعةٍ، والله المستعان ولا قوة إلا بالله"(١).

ولذا فإنَّ الابتلاءَ أكبرُ مُنبهٍ، وأقوى مُذكّرٍ للتمسكِ بذَرائعِ الاصطفاءِ من توبةٍ وصبرٍ، وتلاوةٍ ودعاءٍ، وصلاةٍ واتباعٍ؛ وبمثلِها

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/١٥).

يَحصلُ الاصطفاءُ الثمينُ، وتُنالُ الإمامةُ في الدينِ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة:٢٤].

التوبة والصبر

إنَّهُ يُنادِينا

يتيهُ المرءُ في دروبِ الحياةِ، ويُسرفُ على نفسِه بالمعاصي، ويحمِّلهُا ما لا تُطيقُ من الآثامِ، ويَبتعدُ كثيرًا عن جادَّةِ الصوابِ، ويَنقطعُ زادُه، ويَفنى مزادُه، وربما كبُر سِنُّه، ورَقَّ عظمُه، وضَعُف جسدُه.

وما زالَ الشيطان حادِيه، يصرخُ به ويناديه، ويُزينُ له سوءَ العمل، ويُمنيه بطولِ الأمل.

ولَكِن ...

تَمُرُّ بالمرءِ حين ذاك لحظاتُ صفاءٍ، وأوقاتُ نقاءٍ، يسمعُ فيها مَن يُناديه بلُطفٍ وحنانٍ، ويَدعُوه إلى حيثُ الأمنُ والأمان، ويُخلِّصه

من أَسْرِ الشيطانِ.

إنَّه نداءُ الحياةِ بعد الموتِ، وإدراكُ السعادةِ بعد الفوتِ.

نداءٌ إلى البابِ المفتوحِ الذي ليسَ عليه بوابٌ يمنعُ، ولا مُخادعٌ يخدعُ.

البابُ الذي لا يحتاجُ مَن يلِجُ فيه إلى استئذانٍ، ولا يتقيَّدُ بزمانٍ ولا مكان.

نداءُ الله العظيمِ، الرؤوفِ الرحيمِ...

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

إنَّه يُنادِينَا...

ينادينا من عليائِه... يُنادِينَا مع جلالِه وكبريائِه.

يُنادِينَا.. وهو الغنيُّ ونحن الفقراءُ، يُنادِينَا... وهو القويُّ ونحن الضعفاءُ.

يُنادِينَا... بما يُمتعُ السمعَ ويُطرب الفؤادَ.

يُنادِينا... بدعوةٍ عامة، مفتوحٍ بابُها، عَميمةٍ خيراتُها.

يُنادِينا... بأَحبِّ أوصافِنَا إليه، وأقربِ أحوالِنَا لدَيه.

يُنادِينَا فيقولُ ﴿يَا عِبَادِيَ﴾

فيا لذَّةَ الأسماعِ بذاك النداءِ، ويا جمالَ الأَنفُسِ بهذا النَّقاءِ، ويا فرحةَ الأرواحِ بما بعدَهُ من عطاءٍ.

وممَّا زادني شَرفًا وتيهًا — وكدتُ بأخمُصي أطَأُ الثُّريَّا

دُخولي تحتَ قولِكَ يا عِبادِي — وأن صيَّرتَ أحمَدَ لي نبيًّا

إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكورٌ

"ربُّك الذي ما تُساوي أعمالُك لو سَلِمت مما يُبطلها أدنى نعمةٍ من نعَمهِ عليك، وأنت مُرتهن بشُكرِها من حين أرسلَ بها إليكَ.

ربُّك الذي أزاحَ عنك العِلل، وأمرَك أن تَستعيذَ به من العَجزِ والكَسَل، ووعدكَ أن يَشكرَ لك القليلَ من العَمل، ويَغفرَ لك الكثيرَ من الزَّلَل، إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكورٌ.

الذي يجودُ على عَبيدِه بالنَّوالِ قبلَ السُّؤال، ويُعطى سائلَهُ فوقَ ما تعلَّقَت به الآمَال، ويغفرُ لمن تابَ إليه ولو بَلغتْ ذُنُوبه عددَ ذرَّات الرِّمال، إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكورٌ.

أرحمُ بعبادِه من الوالدةِ بولدِها، وأفرحُ بتوبة التائبِ من الفاقدِ لراحلتِه التي عليها طعامُه وشرابُه في الأرضِ المُهلكةِ إذا وَجدَها، وأَشكرُ للقليلِ من جميعِ خلقِه؛ فمَن تقربَ إليه بمثقال ذرةٍ من الخيرِ شكرَهَا وحمدَهَا، إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكورٌ.

الحسنةُ عنده بعشرِ أمثالِها أو يُضاعفُها بلا عددٍ ولا حُسبان، والسيئةُ عنده بواحدةٍ ومصيرُهَا إلى العفوِ والغُفران، وبابُ التوبة مفتوحٌ لديه منذُ خلقَ السماواتِ والارضَ إلى آخرِ الزَّمان، إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكورٌ"(١).

---

(١) مستفاد من: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٢٨٤).

لا قُنوطَ

إيَّاكم أن تَقْنَطوا وتُقَنِّطوا، أو تَيأسُوا وتُؤيسُوا، فليسَ بينَ من أسرفَ في المعصيةِ، ولجَّ في الذنبِ، وأَبقَ عن الحِمى، وشَردَ عن الطريقِ؛ وبين الرحمةِ النَّديةِ وظلالِها السَّمحةِ المرخيةِ إلا التُّوبةُ.

فمَن أَبَى هذا التفضُلَ العظيمَ والعطاءَ الجسيم، وظنَّ أنَّ تقنيطَ عبادِ الله من رَحمتِه أولى بهِم مما بَشَّرهُم اللهُ به؛ فقد رَكبَ أعظم الشَّططِ وغَلطَ أقبحَ الغلطِ.

فإنَّ التبشيرَ هو الذي جاءَت به وعُودُ الله في كتابِه العزيز، وهو المسلكُ الذي سلكَهُ رسولُه ﷺ كما صحَّ عنه مِن قوله: ((يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلاَ تُنَفِّرُوا))[1].

أتيتُـــكَ راجيًـــا يا ذا الجـــلالِ ... فَفَـرِّج مـا تَـرى مـن سـوءِ حَـالي

عصـيتُكَ سـيدي وَيلِـي بجهلِـي ... وعيــبُ الــذنبِ لم يخطُــرْ ببَــالي

---

(١) أخرجه **البخاري** (٦٩) كتاب: ، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، **ومسلم** (١٧٣٤) كتاب: الجهاد والسير، باب: في الأمر بالتيسير وترك التنفير.

إلى مَـنْ يشـتكِي المملـوكُ إلا إِلى مَـولاهُ يا مـولَى المـوَالِي

فَـويلِي لَيـتَ أُمـي لم تلـدْنِي ولا أَعْصـيكَ في ظُلَـمِ الليَـالِي

وَهـا أنا ذَا عُبيـدُك عبـدُ سـوءٍ بِبَابـكَ وَاقـفٌ يا ذَا الجَـلالِ

فَـإنْ عَاقبـتَ يا ربُّ فَـإِنِّي مُحـقٌ بِالعـذابِ وبِالنَّكـالِ

وإنْ تَعفـو فَعفْـوكَ أَرْتجيـهِ وَيحسُـنُ إِن عَفـوتَ قبـيحُ حَـالِي

لا يَأسَ

إِذَا عصفَت الرياحُ بالآمَال، وتقلبَت بالمرءِ الأحوَال.

إِذَا استحكَمَت على العبدِ الأزمَة، وعمَّت على المرءِ الغُمَّة.

إِذَا جَرَى الوحلُ في السَّواقِي، واغرَورقَت بالدُّموعِ المآقِي.

إِذَا تشابهَت على السالِك المسالِك، وأَذهَبَ بصرَهُ ظلامُ الذنبِ الحالِك؛ فما أسرعَ تسلُّطَه على النفوسِ المريضَة!

ذَاكَ هو اليأسُ إذا جاءَ لوحدِه، أو أحضرَ معه أباهُ: القُنوط.

جندِيانِ كبيران في عساكرِ إبليسَ التي تجتاحُ أرواحَ المؤمنين؛

لتحتلَّ منها أغلى أراضيِها، وتسلُبَ منها أفكارَها ومبادِيها.

لقد خلقَ الله الإنسانَ في كبدٍ، يُعاني مشاقَّ الحياة، ويصبرُ على لأواءِ المحن، ويصارعُ الشرَّ بالخير، ويُقابل الابتلاءَ بالرضا والإحسَان، والأقدارَ بالتسليمِ والإيمان.

فالله تعالى عالمٌ بحوائجِ العباد، قادرٌ على نوالِهَا، منزهٌ عن الضَّنِ والبخلِ بها؛ ولكنها الحكمةُ في وضعِ الأمورِ في مواضعِهَا.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى:٢٧].

بكى يعقوبُ حتى ذهبَ بصرُه، ولم ينقطِع عنده الأملُ في الله فقال ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧]؛ فجاءَه الفرجُ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف:٩٤].

وآلَمَ إبراهيمَ عليه السلام وزوجَه سارة فقْدُ الولد، حتى طالَ الأمَد، فجاءت الملائكةُ ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴿٥٥﴾ قَالَ

وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴿٥٦﴾ [الحجر:٥٥-٥٦].

وأجدبتِ الأرضُ في زمان نبينا محمدٍ ﷺ، فماتَ الزرعُ وجفَّ الضرعُ، وهلكَ القطيعُ وشحَّ الماء في الآبارِ والينابيع، واشتكى الناسُ؛ فرفع الخليلُ يديه إلى خليلِه ((اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا)) فمُطِرُوا[1].

﴿وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى:٢٨].

فلا تيأَس... وعندكَ ربٌّ كريم.

لا تيأَس... وقد جاءَك محمدٌ ﷺ بدينٍ عظيم.

لا تيأَس... وليسَ بينك وبينَ مصرِّفِ الأحوالِ حائِل.

لا تيأَس... وبيدِك سلاحُ الدُّعاءِ الهائِل.

لا تيأَس... ولو كانَ للمكروبِ قوةُ السَّيل، وهولُ البحر،

---

(١) أخرجه **البخاري** (١٠١٤) كتاب: الاستسقاء، باب: الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، **ومسلم** (٨٩٧) كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: الدعاء في الاستسقاء.

وسطوةُ الشمس، وصلادةُ الصَّخر، فإنما هي أمامَ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] تكون هباءً منثورًا.

إذا الحـــادثاتُ بلغـــنَ النُّهـــى　　　وكـــادتْ لهـــنَّ تـــذوبُ المُهَـــج

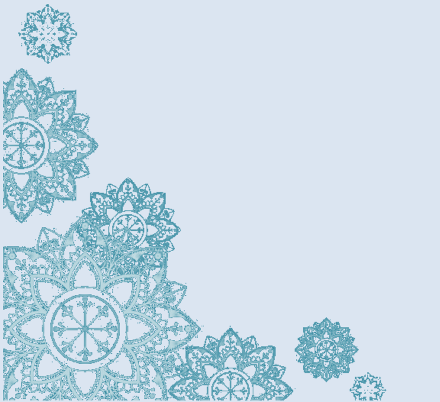
وحـــلَّ الـــبلاءُ وقـــلَّ العـــزاءُ　　　فعِنـــدَ التنـــاهِي يكـــونُ الفَـــرَج

***

فَخفِّـــفْ عَـــن القلـــبِ الهُمـــومَ　　　لعـلَّ الـذِي تخشَـاهُ لـيسَ يَكـونُ

وَكُـــنْ وَاثقًـــا باللهِ فِي كُـلِّ حَالـةٍ　　　فَمـــا شِـــدَّةٌ إلا وَسَـــوفَ تَهُـــونُ

□



التلاوة والدعاء

القرآن نورٌ وشفاءٌ

إنَّ مما يُحزن القلب ويُدمع العين؛ أن ترى جَحافلَ من المؤمنين تَتِيهُ في أوديةِ الحياة، وتغرقُ في بحور المُغرِيات.

تبحثُ عن شهرةٍ زائفة، وتتابعُ سلعةً فارهة، وترجو سعادةً غامرة؛ مع أنَّ كلَّ ما تؤملُه، وجُلَّ ما ترجوه؛ موجودٌ بين يدِيهَا في المعجزةِ الباهرة والحُجةِ الظاهرة.

القرآنُ هو الهدى والبَيان، والموعظةُ والبُرهان.

هو النورُ والشِّفاء، والذكرُ والبلاغ، والوعدُ والوعِيد.

هو الرحمةُ والبِشارة، والتخويفُ والنذارة.

هو الهدايةُ إلى الرُّشدِ والحُبور، والمخرجُ من الظُّلماتِ إلى النُّور.

هو الكتابُ العزيزُ الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤٢].

القرآنُ: كلامُ الله، وأَعظِم بها من صفةٍ لو أيقنَ العبدُ بها؛ لما شبعَ قلبُه من كلام ربِّه، فقد جعله الله حياةً للقلوب وشفاءً لما في الصدور، فلا شيءَ أنفعُ للقلبِ من قراءةِ القرآن بالتدبُّرِ والتفكُّر.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس:٥٧].

القرآنُ: "عُذوبةٌ ترويكَ من ماءِ البَيان، ورِقةٌ تستروحُ منها نسيمَ الجِنان، ونورٌ تُبصرُ به في مِرآةِ الإيمان وجهَ الأمَان.

القرآنُ: يجري في النفوسِ كما تجري في الشجرِ قطراتُ الماء، ويتصلُ بالروحِ ليمُدَّ لها بسببٍ إلى السَّماء"(١).

فلا عجبَ أن يكون القرآنُ كافيًا لكلِّ ذي لُبٍّ سليم، وهاديًا لكلِّ أمرٍ قَويمٍ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

فيا باحثًا عن الأمنِ والرَّاحة، والعافيةِ والسَّعادة، لا شيءَ يُريحُ كالقرآن، ولا شيءَ يُفرحُ كهذا البَيان.

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص٢٣).

القرآن وحيٌ ثقيلٌ

لما كانت الأشياءُ الثقيلةُ لا يَستطيعُ حملَها إلا الأقوياءُ من النَّاس؛ عَلِمنَا السرَّ في هذا التَّراخي العَجيبِ، والتكاسلِ المُريب الذي نجدُه في نُفوسِنا تجاه كلامِ ربنَا.

وما ذاك إلا لأنَّهُ ثقيلٌ ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل:٥]؛ فلا يحرصُ عليه إلا ذَوو العزائمِ القويَّة، والهممِ العاليَة، الذين يتركونَ اللذةَ الحاضرةَ المطلوبةَ، أمَلاً بتحصيلِ اللذاتِ الغائبةِ المجهولةِ، وهذا هو معنى الإيمانِ بالغَيب.

أما الذين يُبادرون إلى هواتِفهم بمجرد سلامِهِم من الصلاة، واستيقاظِهِم من النَّوم، وسيرِهِم في الطُّرقات، وتمضي عليهم السَّاعاتُ، وتُهدرُ منهم الأوقاتُ؛ فليخبرونَا ماذا حصَّلوا من الخيراتِ؟ وماذا يُصيبهم لو فوَّتُوا تلك الأخبارَ، وأجَّلُوا تلك المقاطعَ، وأهمَلُوا تلك الرسائلَ؟؟

لِمَ لا يكون المرءُ أذكى من هاتِفهِ الذَّكي، ويُحددُ موقعَ قُربه من

الله، ويُحدِّثَ علاقته بكتابِ الله؟

يقولُ عبدُ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: "إنَّ هذا القرآنَ مأدُبةُ الله، فمن استطاعَ منكم أن يتعلمَ منه شيئًا فليفعَل؛ فإنه حبلُ الله عزَّ وجلَّ، والنورُ المُبين، والشفاءُ النَّافع، عِصمةٌ لمن تمسكَ به، ونجاةٌ لمن اتبعَه، ولا يَعوَجُّ فيُقوَّم، ولا يَزِيغُ فيُستَعتَبُ، ولا تَنقضي عجائبُه، ولا يَخْلَقُ عن كثرةِ الرَّد..."[١].

وقال الفضيلُ بن عياضٍ رحمه الله: "من لم يَستأنسْ بالقرآن فلا آنسَ الله وَحشتَه"[٢].

وصدق الله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر:٣٢].

---

(١) أخرجه **سعيد بن منصور** في التفسير من سننه (٤٣/١)، وقال محققه الشيخ سعد الحميد: "الحديث صحيح لغيره، موقوفًا على ابن مسعود".

(٢) أخرجه **ابن أبي الدنيا** في العزلة والانفراد (ص٣٣).

هَل وَجدتهُ؟

هل وَجدتْ رُوحكَ ذاك الحبيبَ الذي تبثُّ إليه همومَها؟ وترمي عليه أثقالَها وغُمومَها؟

هل وَجدتْ رُوحكَ مَن تحظى بالراحةِ عند محادثتِه؟ وتشعرُ بالأنسِ عند مخاطبتِه؟

هل وَجدتْ رُوحكَ الأقربَ إليها حبًا وحنانًا، وأمنًا وأمانًا، وثقةً واطمئنانًا؟

لا بدَّ من وجودِه: فقد تُسدُّ الطرقُ، ويدلهِمُّ الخطبُ، وتضيقُ الأرضُ، وتحلُ الشدائدُ، ويقلُ المساعدُ، وتئِنُّ الآنَّةُ، وتحِنُّ الحَانَّةُ، وجناحُكَ منَ الخُشوعِ خَفيض، ودمعُكَ على الخدَّيْنِ يَفيض، وحلقُكَ بالبُكاءِ شَرِق، وجبينُكَ مِنَ الحياءِ عَرِق.

وعندها:

لابُدَّ مِن شَكْوى إلى ذي مُروءةٍ ... يُواسيكَ أو يُسليكَ أو يتوجَّعُ

ولكنّ ذا المروءةِ هذا لا يملكُ إلا المواساةَ والتسليةَ والتوجعَ ؟!

وأنت تريدُ تبدُّلَ الأحوالِ، وتحققَ الآمالِ، ودفعَ الشدائدِ، ورفعَ المصائبِ، واستجلابَ الخيراتِ، واستمطارَ البركاتِ... فَمَن لها؟؟

مَن لها.. فنفِرُّ إليه؟

مَن لها.. فنُناجِيه أو نُنادِيه؟

مَن لها.. فنُنيخُ ببابِه، ونلوذُ بجنابِه؟

ألا تسمعُهُ يقول ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦]

أيَّةُ رِقّةٍ؟ وأيّةُ شفافيةٍ؟ وأيُّ انعطافٍ؟ وأيُّ إيناسٍ هذا الذي يتخللُ الآذانَ والقلوبَ؟

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ فلا تَرفعوا الأصواتَ ولا تُؤذوا الحناجرَ، ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ أعلمُ الظواهرَ والسرائرَ، وذا المصائبِ والدوائرِ، والمهمومَ الحائرَ، والمتألمَ الساهرَ، وأنا ربُّكم ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

الدعاءُ... دليلُ الظمآنِ إلى مواردِ الكرمِ العذْبة، ومِفزعُ الحيرانِ إِذَا ألمّتْ به الضائقةُ وحصرتْهُ الكرْبة.

الدعاءُ... حبلٌ مديدٌ، وعروةٌ وثقى، وصلةٌ ربانيَّة، وكرمٌ فيَّاض، ورحمةٌ إلهيَّة، وفي الحديثِ الحسنِ يقولُ ﷺ: ((لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الدُّعَاءِ))[١]، ويقولُ أيضًا ﷺ: ((إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ، أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا))[٢].

فمَن أرادَ الأُنسَ والراحةَ، والمحبةَ والطُّمأنينةَ، وقوةَ القلبِ، وعظيمَ الرجاءِ؛ فلن يجده إلا عندَ القريبِ سبحانه، مُتضرِعًا بينَ يَديهِ، مُحسنًا الظَّنَ بهِ، غيرَ يائسٍ من رحمتِهِ، ولا مُستعجلٍ لفَرجِهِ، ولا مُغلقٍ لأبوابِ الإجابةِ بسوءِ فعلِهِ ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١].

□

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٠) كتاب: الدعوات، باب: ما حاء في فضل الدعاء، وحسنه الألباني [صحيح الأدب المفرد (ص٢٦٥)].

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٨٨) أبواب: الوتر، باب: الدعاء، وهو في صحيح الجامع (١٧٥٧).

الصلاة والاقتداء

عَلَتْ هِمَمُهم

ما الذي حصَّلوه وفقدنَاه؟

وما الذي علِمُوه وجهِلنَاه؟؟؟

وما الذي ذاقُوه وما ذُقناه؟

لقد آمنوا بالله وآمنَّا، وصدَّقوا برسولِه وصدَّقنا، وقَرؤوا كتابَه وقَرأنا.

فلماذا عَلتْ همَمُهم فسبَقوا، وضَعفتْ عزائمُنا فسُبِقنا؟

لماذا جدُّوا في طلبِ العلا فأدركُوا، وفاتنا إدراكُها حين قَعدنا؟

إِنِّي أُحدِّثك عن بشرٍ مثلِنَا؛ قلوبُهم تنبضُ، وأعينُهم تغمضُ، لهم أذهانٌ وعُقول، وأحلامٌ وآمَال، ولديهم أعمالٌ وأشغَال، وعندهم ملهياتٌ ومُغريات، وتحُفُّ بهم شبهاتٌ وشَهوات ...

ومع كلِّ ذلك: فَعلوا في مرضاةِ ربِهم الأعَاجيب، وامتثلوا سُنة الحَبيب، وتداركوا أعمَارَهم قبلَ المشِيب.

فحُقَّ لنا وصفُهم بأطهرِ البشرِ، وأبعدِهم عن الشوائبِ والكَدر، وأصفاهُم عقيدةً وأنقاهُم سَريرةً.

هم السلفُ الأولون الذين سبقُونا بالإيمان؛ أصحابُ القلوبِ الصافيةِ، والأهدافِ الساميةِ، والهممِ العاليةِ.

عن عِمرانَ بن حصينٍ ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ : ((خَيرُ أُمَّتِي قَرنِي ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم))[١].

ولذا؛ كان لزامًا أن نَعرِف جميعًا قدرَهم، ونهتديَ بهديهِم، ونسيرَ على نهجِهم.

وكان لزامًا، أن نُعلِّق الأجيالَ بهم، لتعرفَ أحوالَهم وعبادتَهم وأخلاقَهم.

---

(١) أخرجه **البخاري** (٣٦٥٠) كتاب: أصحاب النبي ﷺ، باب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، **ومسلم** (٢٥٣٥) كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم..

نغترِفُ من نهرِ فُهومهم، ونتجولُ في ميادينِ عُلومهم؛ لنزدَرِيَ أنفسنا أمام تلك القَامات، ولنُجددَ إيماننَا لاحقين بهم في دُروب المكرُمَات.

وهذه نُبذٌ من أقوالهِم وأحوالهِم؛ أخصُّ بها شعيرةً يتوجع القلب أَلـمًا، وتذرِف العينُ حسرةً؛ ويحيرُ العقلُ عجبًا، مِن كثرة إهمالِ الناسِ لها، وشِدةِ تلاعُبِ الشيطانِ بهم فيها.

مع أنها عمودُ خيمةِ إسلامِهم، ودليلُ صدقِ إيمانِهم.

وأولُ ما يُسألون عنه، وآخرُ ما يُفقد من الدِّين.

وهي علامةُ التعظيم، وليسَ بعد ذهابها إسلامٌ ولا دين، إن صَلحت صلحَ سائرُ العمل، وإن رُدَّت رُدَّ سائرُ العمل.

من ذلك: أنَّ عمرَ بن الخطابِ ﷺ كان يَكتُبُ إلى الآفاقِ:

"إنَّ أهمَّ أمورِكُم عندي الصلاةُ؛ فمَن حفِظَها حفِظَ دِينَه، ومَن

ضَيَّعها فهُو لِمَا سِواها أَضيَعُ"[١]، وكان يقول: "لاحظَّ في الإسلامِ لَمن تركَ الصلاةَ"[٢].

هذا أهمُّ شيء يُوصي به عمرُ رعيتَهُ في آفاقِ الأرض.

لقد أخذَ الوصية من القائلِ في سكراتِ موتهِ - بأبي هو وأمي - ﷺ: ((الصَّلاةَ الصَّلاةَ وَمَا مَلَكتْ أَيمَانُكُم))[٣].

"فاعرِف نفسكَ يا عبدَ الله؛ واحذرْ أن تَلقى اللهَ ولا قدرَ للإسلامِ عندك؛ فإنَّ قدرَ الإسلام في قلبِك كقدرِ الصلاة في قلبكَ"[٤].

ومن ذلك: قولُ ابن مسعودٍ رضي الله عنه: "مَن سرَّهُ أن يلقى اللهَ غدًا

---

(١) أخرجه **مالك** في الموطأ (٦) بسند صحيح.

(٢) أخرجه **مالك** أيضًا (٥١)، وسنده صحيح [إرواء الغليل (١/٢٢٥)].

(٣) أخرجه **أبو داود** (٥١٥٦) كتاب: الأدب، باب: في حق المملوك، **وأحمد** (٥٨٥) وصححه محققو المسند.

(٤) الصلاة وأحكام تاركها لابن القيم (ص٣٤).

مسلمًا، فليحافظْ على هؤلاء الصلواتِ حيثُ يُنادى بهن، فإنَّ الله شرعَ لنبيكم ﷺ سُنن الهُدى، وإنهنَّ من سُنن الهُدى، ولو أنَّكم صلَّيتم في بيوتِكم كما يُصلي هَذا المتخلِّف في بيتِه، لتركتُم سُنةَ نبيكُم، ولو تركتم سُنةَ نبيكُم لضَللتم، ومَا مِن رجل يتطهرُ فيُحسنُ الطُّهور، ثم يَعمد إلى مسجدٍ من هذه المساجدِ، إلا كتبَ الله له بكلِّ خُطوة يخطُوها حسنةً، ويرفعه بها درجةً، ويحطُّ عنه بها سيئةً، ولقد رأيتُنَا وما يتخلفُ عنها إلا منافقٌ معلومُ النفاق، ولقد كان الرجل يُؤتَى به يُهادى بين الرجلينِ حتى يُقام في الصفِّ"(١).

يا لله: يُهادى حتى يُقام في الصف! أيُّ تعليق على أحوالنا يمكن أن يُسطَّر هنا؟

ومِن أحوالِهم في ذلك: أنَّ إبراهيم التيميَّ رحمه الله كان يَسجدُ حتى تنزلَ العصافيرُ على ظهرِه لا تحسبُه إلا جَذْمَ حائطٍ!(٢).

---

(١) أخرجه **مسلم** (٦٥٤) كتاب: المساجد، باب: صلاة الجماعة من سنن الهدى.

(٢) أي: بقية حائط انهدم. [سير أعلام النبلاء (٥/٦١)].

ومِن ذلك: أنَّ سعيدَ بن عبد العزيز، الإمامَ القدوةَ، مفتي دِمشق، سُئل: ما هذا البُكاءُ الذي يَعرِضُ لك في الصلاة؟ فقال: ما قُمتُ إلى صلاةٍ إلا مَثُلت لي جَهنَّم.

وقيل: كان سعيدٌ هذا؛ إذا فاتتْهُ صلاةُ الجماعةِ بَكَى[١].

ومِن ذلك: قولُ حاتمٍ الأصم: "فَاتتني الصلاةُ في الجماعة فعزَّانِي أبو إسحاق البخاريُّ وحدَهُ، ولو ماتَ لي ولدٌ لعزَّاني أكثرُ من عَشرةِ آلاف؛ لأنَّ مُصيبةَ الدِّين أهونُ عند الناسِ من مُصيبةِ الدُّنيا!!"[٢].

ومِن ذلك: ما قصَّهُ ابنُ العربيِّ المالكيُّ فقال:

صليتُ المغربَ ليلةً ... ومعنا شيخُنا أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المغربيُّ الزاهدُ، فلمَّا سلَّمنا تَمارى رجلانِ كانا عن يمينِ أبي عبد الله المغربي؛ وجَعل أحدُهما يقول للآخر: أسأتَ صلاتَك، ونقرتَ نقرَ الغراب؛ والآخرُ يقول له: كذبتَ؛ بل أحسنتُ وأجملتُ.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/٣٤).

(٢) إحياء علوم الدين (١/١٤٩)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٢٣٨).

فقال المعترضُ لأبي عبد الله الزاهدِ: ألم يَكنْ إلى جانِبكَ؛ فكيف رأيتَهُ يُصلي؟

قال أبو عبد الله: لا عِلَم لي به، كنتُ مُشتغِلاً بنفسي وَصَلاتي عن النَّاس وصلاتِهِم، فَخجِلَ الرجل وأُعجِبَ الحاضرونَ بالقولِ[١].

سِرُّ هذا السَّبْق

السرُّ الذي حصَّله سلفنا الصالحُ وافتقدَهُ بعضنا؛ هو التعظيمُ لأوامِرِ الله:

التعظيمُ الذي قادَهُم في شأنِ الصلاةِ إلى رعايةِ شروطِهَا وحدودِها، والإتقانِ لَأركَانِها وواجباتِهَا، والحرصِ على تحيُّنِها في أوقاتِهَا، والمسارعةِ إليها عند وجوبِهَا، والحزنِ والكآبةِ والأسفِ عند فوتِ حقٍّ من حُقوقِهَا.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٣/٣١٣).

وأمَّا البعضُ: فمَثلُهُ كمثل شاعرٍ أرادَ نوالاً من خليفةٍ كريمٍ؛ يُعطي مَنْ يمدحُهُ المالَ الجزيلَ، بشرطِ أن يُخلصَ في مدحِهِ، ولا يَذكر في حضرتِهِ غيرَهُ، فسألَ الشاعرُ الحاجبَ عن الوقتِ الذي يُؤذنُ له فيه، والهيئةِ التي ينبغي أن يلقاهُ عليها، فأخبره أن يتطيبَ ويلبسَ كذَا وكذَا من الثيابِ، فذهبَ يصنعُ ما قيلَ له، فلمَّا دخلَ على الأميرِ نَسِي الشرطَ وامتدحَ غيرَهُ بحضرتِهِ؛ فَطردَهُ!

وللهِ المثلُ الأعلى؛ فكمْ مِن مُتطيّبٍ، لابسٍ أحسنَ الثياب، واقفٍ بين يَديْ ملك الملوك وقلبُهُ يجولُ في متاعِ الدُّنيا الفانيةِ!

أما مَن ذاقَ حلاوةَ الصلاةِ فليس يتأخرُ لحظةً واحدةً عن إجابةِ داعي الله إذْ يُنادي: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، ولا يُقدِّم شُغلَهُ عليها مهما عَظُم وكَبُر.

فَهِي راحةُ الأرواحِ من هُموم الحياةِ، ورضيَ الله عن عَديّ بن حاتم إذْ يقول: "ما دخلَ وقتُ صلاةٍ حتى أشتاقَ إليها؛ ومَا أقيمت

الصلاةُ منذ أسلمتُ إلا وأَنا على وضوءٍ"[١].

في الامتثالِ نجاةٌ

"سَلك قومٌ مفازةً غبراءَ قاحلةً حتى إذا لم يدرُوا آلذي سَلكُوا منها أكثرُ أم ما بَقِي؟ أنفدُوا زادَهم، وأفنَوا مزادَهم، وبَقوا بين ظهراني الصحراءِ بلا زادٍ؛ فأيقنُوا بالهَلكةِ.

فبينما هم كذلك؛ إذْ خرجَ عليهم رجلٌ في أجملِ حُلةٍ، يقطُر رأسُه من الماء، فقالوا: إنَّ هذا قريبُ عهدٍ بريفٍ وماء.

فلما انتهى إليهم؛ قال: يا هؤلاء عَلامَ أنتم؟

قالوا: على ما ترى، قال: أرأيتُم إن هديتُكم إلى ماءٍ رواء ورياضٍ خضراء، ما تجعلون لي؟؟ قالوا: لا نعصيك شيئًا، قال: أعهودُكُم على ذلك ومواثيقكُم بالله؟؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/١٦٤).

فأعطوه عهودَهم ومواثيقَهم بالله لا يعصونه شيئاً، فأوْردَهم ماء ورياضًا خضراء، فمكثوا فيها ما شاء الله، ثم قال: يا هؤلاء الرَّحيل!

قالوا: إلى أين؟

قال: إلى ماءٍ ليس كمائِكم ورياضٍ ليست كرياضِكم.

فقال أكثرُ القوم: والله ما وجدنا هذا حتى ظَننا أن لن نجده، وما نصنعُ بعيشٍ هو خير من هذا؟

وقالت طائفة وهم أقلُّهم: ألم تعطوا هذا الرجلَ عهودَكم ومواثيقَكم بالله لا تعصُونه شيئًا؟ وقد صدقكم في أولِ حديثه فوالله ليصدقنَّكم في آخره.

فراح بمن اتَّبعه، وتخلَّف بقيتهم؛ فبادرهُم عدوٌّ لهم فأصبحوا بين أسيرٍ وقتيل"[١].

محمدُ بن عبد الله، نبيُّه ومصطفَاه، والهادي إلى جنتِهِ ورضَاه،

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٢٣١).

بعثهُ ربُّه بالهدى ودينِ الحق، وحلّاه بمكارمِ الأخلاقِ والصدق، وأنارَ به الطريقَ إليه لتسلُكُوا، وبه تقتدُوا، وحثَّ على طاعته فقال ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

فما ترك خيرًا إلا دلَّنا عليه، ولا شيئًا يُقربُ من الله إلا هدَانا إليه، فبلَّغ الرسالةَ وأدَّى الأمانةَ ونصحَ الأمةَ، ووعدَنا بجناتٍ ونهَر، ومقعدِ صِدقٍ عند مليكٍ مُقتدر، فصلواتُ الله وسلامُه عليه.

وقد بقي أمرُ الامتثال، فهو نجاةُ الحال والمآل، وسببُ فلاحِ المتقين، وهلاكِ المجرمين.

الامتثالُ الذي يُنبئُ عن يقينٍ قويٍّ وإيمانٍ عميقٍ بصدق وعدِ الله ورسولِهِ للطائعين المتعبدين.

اللهم اكتُبنا من أصفيائِك وأوليائِك، واجعل كلَّ بلاءٍ قضيتَهُ
عَلينَا رِفعةً في دَرجَاتِنَا وتكفيرًا لسَيئاتِنَا
وصَلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى
نَبِيّنَا مُحمَّد.